دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلد 24 العدد 02 السنة 2024 ص ص 39-70

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

دور التماسك النحوي لعبد القاهر الجرجاني في إرساء آليات علم النصّ الحديث

المحور الرابع: مفاهيم لسانيات التراث في ضوء اللسانيات الحديثة

The role of grammatical cohesion of Abdul Qaher Al-Jurjani in establishing the mechanisms of modern text science

The fourth axis: Concepts of heritage linguistics in light of modern linguistics

بللو زهرة [1]، بن عيسى عبد الحليم [2]

[1] جامعة أحمد بن بلة وهران (الجزائر) ، zohra.bellelou@gmail.com

[2] جامعة أحمد بن بلة وهران (الجزائر)، abdelhalim2001@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 29 / 08/ 2021 تاريخ القبول: 03 / 11/ 2024 تاريخ النشر: 2024/12/31

Abstract :

Language, has always been the subject of research since the beginning og time in Order to reveal its secrets and decipher the codes of that amazing human communication.

A bdul Qater Al jurjani's work on grammatical cohesion has shed light on the importance of casting in achieving a comprehensive of the text. since that early work research has moved form studying the sentence and as consequences research in linguistic swing from sentence linguistic to text linguistic.

Key words :

grammatical cohesion – language – sentence – text linguistic.

المؤلف المرسل: الاسم الكامل: بللو زهرة
البريد الالكتروني:zohra.bellelou@gmail.com

الملخص:

إنّ اللّغة بوصفها مظهراً من مظاهر التّواصل الإنساني الرّاقي،وثمرة من ثمار العقل الذي خصّ الله عزّ وجلّ به الإنسان عن سائر المخلوقات،حتّى تكاد هذه اللّغة تمثّل صورة العقل في كلّ حالات تجليه،إذ تؤدي وظائف متعدّدة كالوصف والشرح والتّفسير والرّبط والاستقلال والتّأويل والإيحاء.وعليه كانت اللّغة موضوع بحث منذ الأزل،للكشف عن أسرارها،وفكّ رموز ذلك التّواصل الإنساني العجيب؛وانتقالاً من نظرية إلى نظرية ومن حقل إلى حقل من حقول اللّغة العميقة،يتجلّى لنا دور عبد القاهر الجرجاني في دراسته للتّماسك النّحوي وتبيانه للأهميّة الكبيرة التي تؤديها آليات السبك في الظفر بالمعنى الكلّي والشّامل للنّصّ،ومن هنا تبلورت الدراسات حول هذه اللآلئ الفريدة التي أسّست لترابط الجملة،فالتركيب فالفقرة،ومن ثمّة النّصّ،البناء الكلي المتكامل الأجزاء، وقد كان البحث المعمّق بداية فتق أوّل بذرة من بذور الدّرس اللّساني بكل ما يحمل من دقة وتمحيص،إنّه الرشيم الأصل في علوم اللّغة،فاتحاً الأبواب للباحثين للارتواء من النّبع الزلال،ثمّ اقتفاء أثره بجديد، وفعلاً كانت الأبحاث تتدفق في حقول الجملة ثمّ النّصّ وما أدى إلى تأرجح البحث اللّغوي من لسانيات الجملة إلى لسانيات النّصّ.

الكلمات المفتاحية:

التماسك النحوي – اللغة – الجملة – النص اللغوي

كانت ورقتنا البحثية هذه آلية للغوص في تراثنا اللّغوي العربي،ونموذجاً واقعياً وتراثياً،ينبغي الإفادة والاستفادة منه في

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

المستقبل،وكان لنا شرف ذلك،وفق منهج لساني يعتمد على تبيان وكشف عن المصطلحات اللّغوية المستعملة عند علمائنا القدامى،وارتأينا كذلك أن ندرس المفاهيم اللّسانيّة في التراث اللّساني العربي،التي أسّسها ووضع أصولها القدماء،ومن بينهم عبد القاهر الجرجاني واضع المصطلحات الأساسيّة في النّحو من فصل ووصل وحذف وتقديم وتأخير وتكرار،والتي بموجبها يتماسك النصّ نحوياً ومن ثمة تنتظم الكلمات مع بعضها البعض،مشكّلة النّظم الكلّي للنّصّ،وبعد مرور حقب زمنيّة خلت من البحث وإعادة النّظر في تراثنا،نهل منه الغرب وأعادوا صياغته بحلّة جديدة،ليكتشفوا علم النّصّ،وما هذا العلم بجديد،وإنّما جذوره متجذّرة في علوم العرب،نمت أغصانه وتفرعّت على أيدي الدّارسين،وتوّتدت سيقانه عند العرب المحدثين،لمّا تعمّقت قراءاتهم للتراث بأمصال علميّة وموضوعيّة دقيقة،بغية الكشف عن المؤسّس الأوّل وصاحب الريادة في علم النّصّ،والطفرة العربية الخالدة في مجال النحو والبلاغة.ما هو المبتغى المرجو الوصول إليه من وراء تبني عبد القاهر الجرجاني،وتأسيسه لمبادئ التّماسك النّحوي في النّصّ الأدبي؟وهل كانت نظريته قاعدة لانطلاق علماء النّصّ لعلمنة النّصّ وتفاعله؟

لإثراء هذه الإشكالية علينا أن نثير مجموعة من العناصر هي كالآتي:

1) توطئة.
2) الإطار اللّساني للعلامة اللّغويّة.
3) تعريف اللّغة.
4) التصوّر اللّساني للنّصّ الأدبي.
5) الخطاب اللّساني الجرجاني بحث في الأسس المعرفيّة.

6) المفاهيم النّحويّة الجرجانية(القول في الحذف-القول في الفصل والوصل-باب القصر والاختصاص-باب التّقديم والتّأخير).
7) معنى المعنى اكتشاف جرجاني.

1) توطئة:

يتناول الدّارسون اللّغة من جانبين، هما الدّرس والاستعمال، فأمّا الدّرس فيسعى إلى البحث عن تكوين كلّ لغة بواسطة النّظر في عناصرها والكشف عنها، على مستوى الجملة وما دونها نظراً تحليلياً يعتمد على التّبويب والتّصنيف والتّقعيد، وحسبنا أن نذكر من ذلك في النّحو العربي، الاعتراف بواجب الحذف والتّقديم وتقدير العامل في الاشتغال وغير ذلك من الظواهر التي وَجَّهت ذلك الاتجاه التّأصيلي الذي يعتمد على تجريد المفاهيم وافتراضها.

وبذلك جاز لنا أن نصف هذا النّظام اللّغوي بأنّه نظام افتراضي، يصدر أحكاماً صارمة في كثير من الظواهر.أمّا الجانب الثّاني للنّشاط اللّغوي وهو الاستعمال، فله مرتكزات لا تتّفق أحياناً مع المحافظة على القواعد.تلك الأغراض التي تستدعي من المبدع الخروج من الحقيقة إلى المجاز، ومن المطابقة إلى التّرخيص في معايير الإجراء بوسائل كالنّقل والحذف والزّيادة ومخالفة القّاعدة والتّعويل على الدّلالات الصّوتيّة والعقليّة، والإيماءات الجسميّة، والتّعويل على دلالة الموقف أثناء الاتّصال، وعلى القرائن التّاريخيّة والجغرافيّة، والنّفسيّة والفلسفيّة، وغيرها ممّا يخرج عن مجال دراسة القواعد النّحويّة.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

وأياً كان الشأن، فإن اتّجاه البحث في النّظام الافتراضي يكون إلى التّحليل، واتجاهه في دراسة الاستعمال يكون إلى التّركيب.وحيث إنّ الغاية من التّحليل هي الوصف، والغرض من التّركيب والاتّصال، عند ما يتم باستعمال اللّغة في موقف أدائي حقيقي.

وفي تراثنا العربي ما يشير إلى ضرورة الجمع بين المنهجين، إذ إنّ الغاية من هذه الأمور وما شابهها هي الانتفاع بالنّصّ في جملته، لبيان وفائه بما تعلّق من أغراض، ثم بيان انتفاع النّصّ بالنّصّ في جلاء ما غَمُض من مراميه، ولقد درجت الدّراسات التّحليلية على العناية بموقف المتلقي من النّصّ دون العناية بموقف منتج النّصّ، أي أنّها وجّهت كلّ عنايتها للفهم، ولم تعن إلاّ في القليل بالصّياغة ، فلا نكاد نجد في تراثنا العربي من يُعنى بجانب الصّياغة إلاّ عبد القاهر الجرجاني الذي اقترح للصّياغة أربع مراحل، هي النّظم والبناء والتّرتيب والتّعليق.«الكلام بوصفه ظاهرة من ظواهرالاستخدام اللّغوي الموّظف لأغراض حيويّة،لا يتحقّق إلاّ من خلال الاستخدام»[1]، ولا يتجسّد الكلام إلاّ باللّغة المرصوفة التّراكيب والمرتّبة المعاني،فالجرجاني يوجّه الخطاب إلى المتلقّي المتذوّق لمدلولات الدّوال،والذي يناط أيضاً بفهم معنى العبارات المكوّنة للنّصّ،أي أنّ المعنى يمكن أن يؤدى إلى القارئ وفق صيغ تعبيريّة مختلفة يشملها،ما وسمه بعلم المعاني،ذلك لأنّ اللّغة في أشكال هذا العلم المختلفة تتحوّل إلى أداء فردي خاص يعبّر عن أغراض معيّنة ومخصوصة،لتأديتها ما يناسب حال المتلقي من جهة،ومقصود المبدع من جهة أخرى،يتخيّر أسبك الألفاظ وينتقي أجود التّراكيب،بانياً نصّاً مترابطاً.

بمنهج تحليلي، عمدتُ إلى اِستبيان مدى تفاعل النّصّ، ومدى فاعلية الخطاب، واستجلاء وتفسير ملابساته وتحقيق مشروعيّته

ونصيّته، من خلال اِتّساق نحوي وانسجام معنوي مأمول من طرف عالم عربي فذ.

2) الإطار اللّساني للعلامة اللّغوية:

يفترض الضّبط الدّقيق لصورة العلامة اللّسانيّة تحديدها داخل دائرة الكلام،إذ تقتصر مهمتها على ضبط التّمظهرات الصّوتيّة المتغايرة،في اللّسان،ذلك أنَ التآزر الحاصل بين الصّوت والفكرة يقوم على تعاضد بين العناصر الأكوستيكيّة النّطقيّة،والعناصر الفزيولوجيّة الذّهنية، «ولم يظهر النّقد الموضوعي المنهجي المتقن،إلاّ في القرن الرابع الهجري... وذلك بفضل ما تهيّئت له أجواء فكريّة وثقافيّة،ناتجة عن التّفاعل الحضاري الذي أحدثه مجيء الإسلام...على أنّ العامل الأهمّ في رأينا اِزدهارالدّراسات النّقديّة الجماليّة والموضوعيّة،هو الثّورة اللّغوية الفكريّة الثّقافيّة التي أحدثها نزول القرآن الكريم»[2]، ولقد كانت الدّراسات القرآنيّة المحور الرّئيسي الذي اِنطلقت منه شرارة الدّراسات اللّغوية عند العرب القدامى،فبمجرّد تلقيهم لآيةتذوّقوه،وجعلوه نموذجاً راقياً، ومقياساً لأدبهم،ومعياراً لجودة لغتهم.«ويحدّد الإمام الخطابي إعجاز القرآن – القائم على اللّفظ والمعنى والنّظم–هذهالفقرة المجملة الكاشفة،وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمورمنه في غاية الشّرف والفضيلة،حتّى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفّصح ولا أجّزل ولا أعذب من ألفاظه،ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه،أمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتّقدّم في أبوابها والتّرقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[3].لقد كان لعبد القاهر الجرجاني باع طويل في تأمّله للقرآن الكريم،أراد أن يبرزلنا من خلال كتابيه "أسرار البلاغة"و"دلائل الإعجاز"هو أنّ النّظم رباط بين لفظ ومعناه،في حلّة سياق دّال،وأنّه القطب الذي

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

دارت عليه مدارالدّراسات عند البلاغيين قديماً،من أمثال الجاحظ وأبي هلال العسكري وغيرهم،ويؤكّد في نظريّة النّظم على مسألة التّعلّق والتّضام فيما بين الكلم،فاللّفظة المفردة لا تؤدي المعنى منفردة،بل ينبغي مراعاة علاقاتها مع المفردات الأخرى في التّركيب أو العبارة،«...وإن ثبت أنّه في النّظم والتّأليف،وكنّا قد علمنا أن ليس النّظم شيئاً غير توخّي معاني النّحو وأحكامه فيما بين الكلم،وإنّا إن بقينا الدّهر نجهد أفكارنا حتّى نعلم الكلم المفردة،سلكاً ينظمها وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها،ويجعل بعضها بسبب من بعض،غير توخّي معاني النّحو وأحكامه فيها،طلبنا ما كلّ محال دونه...»(4)، أضحى المحال غير مستحيل عند الباحثين المعاصرين،وبان واتّضح للمتفحّص الحصيف أنّه لا ينال المزيّة من النّظم،إلاّ إذا اتّبع قوانين النّحو،واحترم أصوله،وسلك المسالك التي ينهض عليها ترابط النّصّ بآليات النّحو شروى الحذف والتّكرار والتّقديم والتّأخير...،وكلّ معاني النّحو التي تتطلّب حسن اختيار،وحسن تأليف من متعاطي القول.

ومن ثمّة فإنّ العلامة اللّغويّة،كانت محلّ بحث واهتمام،منذ نزول القرآن الكريم،ثمّ توسّعت الدّراسات،ونحت مناحي متعدّدة،إلاّ أنّوطأت معالمها أمصار البلاد الغربيّة،فكان لهم شأن علمي ومشروع في دراستها،وبرعوا في ما أضافوه عن العرب؛«تستقلّ العلامة اللّسانيّة بوصفها كياناً نفسياً عن إرادة الفاعل المتكلّم، ولا تتحدّد إلاّ ضمن المجال الاجتماعي الذي يستطيع حسب "فرديناند ديسوسير"(Ferdinand De Saussure)،إلغاء كلّ تلك الفوارق التّمييزيّة للمؤسّسة اللّسانيّة،ودمجها عبر مفهوم العلامة ضمن مجموع الأنّساق الدّالة،التي تختصّ بالدّلالة على الأفكار»(5)، قد كان "دي سوسير" يرى في الدّال والمدلول ذلك الانتظام الشّكلي للماهيّة الصّوتيّة مع الفكرة،فينتج عنه علامة لسانيّة تتجاور مع علامات أخرى في تركيب

لغوي،ومن ثمّة تتناسق في نصّ كليّ دال،يؤدي معنى معيّن.«ولعلّ علم اللّغة-الدّراسة العلميّة للّغة-من أكثر العلوم اِهتماماً بالمعنى،وتعدّ دلالة المعنى جوهريّة بالنسبة للّغات كما نعرفها،وربما صحّ القول أنّ فكرة «اللّغة من غير فكرة» غير منطقية في حدّ ذاتها...مع أنّ أنواعاً عديدة من السّلوك يمكن وصفها بأنّها ذات معنى»[6] تؤدي اللّغة وظيفتها الأساسيّة وهي الوظيفة الشّعرية،بما تحمله من تأثيرات وآثار تؤثّر في المتلقي فتجعله ينبهر بها.

3) تعريف اللّغة:

اللّغة عبارة عن أصوات محمولة في كلمات،يستطيع أن يلفظها الإنسان ليعبّر عن حاجياته ويقدر على التّواصل مع الآخرين من أفراد مجتمعه.«فلقد أطرد في العرف البشري تعريف اللّغة بأنّها جملة رموز متواترة بين أفراد المجموعة البشريّة التي تتحوّل بفعل الرّابط اللّغوي إلى مجموعة فكرية حضارية،وهذه الرّموز سواء أكانت ملهمة إلهاماً أم منبثقة اِنبثاقاً، فإنّها تمثل ضرباً من التسليم الضمني بين مستعمليها»[7]، وترتبط هذه الأمور بقوانين مشكّلة للبناء الكلّي للّغة،«إنّ اللّسانيات قد أوكل إليها اليوم مقود الحركة التأسيسيّة في المعرفة الإنسانيّة،لا من حيث تأصيل المناهج،وتنظير طرق إخصابها فحسب، لكن أيضاً من حيث إنّها تعكف على دراسة اللّسان،فتتّخذ اللّغة مادة لها وموضوعاً»«[8]ما انفك علم اللّسان الحديث، يحقّق المكتسبات تلو المكتسبات، في شتّى الميادين،ولا يزال العلماء اللّغويون يقدمون غزير المعارف،النّظرية والتّطبيقية لينهل منها المختصون في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.«...يسخّر مستعملوا اللّغة هذه الأداة لتحقيق أغراض متعدّدة كالتعبير عن الفكر والأحاسيس والمعتقدات التّأثير في الغير بإقناعه أو ترغيبه...إلاّ أنّ

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

هذه الأغراض وإن تعدّدت واختلفت من حيث طبيعتها آوية إلى وظيفة واحدة هي تحقيق التّواصل بين أفراد مجتمع ما.»(9)

يتم التواصل عبر اللّغة وعبر قنوات أخرى،كالإشارة والصورة،إلاّ أنّ التّواصل المتوسّل فيه باللّغة يتسّم بالدّقة والقوّة في إيصال المعاني إلى المتلقي.«تعدّ اللّغة الإنسانيّة السّمة الوحيدة الأكثر تمييزاً لنا كبشر،وهذا ما سوف نحاول إثباته فيما بعد،إنّ ملكة اللّغة التي عادة ما نأخذها كقضية مسلم بها،تحوي عدداً من الخصائص الملحوظة بل المدهشة»(10). جدير بالذكر أن نقول إنّ اللّغة العربيّة هي لغة سامية،تجعل من أبنائها يتفردون على الآخر،فهي لغة القرآن الكريم، وهي لغة الإعجاز،بحث في أنّساقها وجمع موادها العرب القدامى الأوائل،فصنّفوا المصنّفات النّفيسة في النّحو والصّرف،وألّفوا الكتب الجليلة في علوم القرآن والحديث،وصنعوا المعاجم بأنواع كثيرة،«...ويبدو أنّ محاولات كثيرة من المحاولات الأولى للدرس اللّغوي التي تمّت في أماكن مختلفة من العالم،يكون البحث اللّغوي عند العرب قد بدأ في شكل جمع للمادة اللّغويّة،أو ما يعرف بمتن اللّغة،وأن يسبق ذلك الدّرس النّحوي،وقد تمّ هذا الجمع أولاً بطريقة المشافهة أو الحفظ،دون منهج معيّن في ترتيب المادّة المجموعة أو تبويبها...»(11). ولا ننسى التّنويه بفضل أبي الأسود الدؤلي في ضبط المصحف الشريف،والخليل بن أحمد الفراهيدي الذي وضع علم العروض والتّرتيب الصّوتي للحروف،وليست أسبقيّة العرب تنحصر في مجال دون غيره،بل كانوا متفوّقين في علوم اللّغة قاطبة،محتلّين المراكز الأولى سواء في الزّمان أو المكان،بالنسبة للعالم القديم والحديث،وبالنسبة للشرق والغرب.«إنّ إدراك بعض الموجودات المادية(أشياء،علامات،أصوات...)يمكن أن يؤدي إلى وجود تفكير في شيء آخر مع انتظام ما»(12)،تنتظم العلامات اللّغوية مع بعضها

البعض،مشكلة نصّ متكامل الأجزاء ومنسجم الأفكار،ومتّسق التّراكيب.ويعرّف "دي سوسير" اللّغة بقوله: «هي تنظيم من الإشارات المفارقة أو نظام من الإشارات المتميّزة،يرتبط بأفكارمتميّزة»[13]، أي تنظيم الأصوات والصّيغ والتّركيب،وأساليب التّعبير في النّسق اللّغوي،ويعرفها "هاليداي" (Halliday) بقوله«اللّغة كما يعرّفها علم اللّغة الوصفي،هي أنماط من النشاط الاجتماعي للإنسان،يعرض أنماطاً من المادة (الصّوتيّة والمكتوبة)والصّيغة(النّحو والمعجم) والسّياق»[14]، يركّز "هاليداي" على الألوان المنظّمة في الاستخدام اللّغوي،بمهاراته الأربعة الكلام والاستماع والقراءة والكتابة،ومستويات اللّغة الصّوتي والنّحوي والصّرفي والمعجمي والسّياقي الدّلالي.«على أنّ ما يزيد أن نذكر عليه هو أنّه تداخلت عدّة أنّساق معرفيّة في موضوع كتبهم البلاغيّة،أو في آرائهم فيها،فهناك المنطق الصّوري،وهناك الأصول وهناك النّحو،وهناك النّقد الشعري.وقد اِمتاز كلّ هذه المؤلفات البلاغيّة بهيمنة نسق عليه من بين الأنّساق الأخرى»[15] هذا ما أدى إلى تداخل الأنّساق.

«...المادة اللّغوية العربيّة بما تمتاز به من خصائص وسمات،اللّغة العربيّة كأيّة لغة طبيعيّة أخرى خصوصاً إذا كانت لغة ذات مسحة شعرية أو شعرية...تحطّم الحدود بالتّضاد وبالتّناسب وبالتّرابط،ممّا يكوّن فيضاً دلالياً يؤدي إلى التّداخل والتّكرار على أنّ "السجلماني" وفّق-رغم الصّعوبات الطّبيعيّة-في تقديم اقتراحات علميّة وتعليميّة وإديولوجيّة وسياسيّة...»[16]، يتبيّن لنا أنّ اللّغويين العرب،قد اِنكبوا على دراسة اللّغة العربيّة دراسة مستفيضة ومستقصية،شملت كل مستوياتها،ودقّقوا في الاستنباط والاستقراء والفرز والتّرتيب والتّبويب،ممّا أنتج زخماً لغوياً هائلاً نهل منه العرب

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

والعجم،وها نحن عبر أحقاب طويلة نسترفد من معارفه،ونوظّفها في بحوثنا،التي تزداد دقّة وتصويباً.

4) التّصوّر اللّساني للنّصّ الأدبي:

لقد قطعت الدّراسات العلميّة التي أحاطت بالنّصّ الأدبي أشواطاً كبيرة،فعَبرت من لسانيات الجملة، التي وضع معالمها ورسم خرائط تراكيبها عبد القاهر الجرجاني، إلى لسانيات النّصّ،والتي كانت اِمتداداً لدراسة الجملة،إذ تجتمع الجمل مع بعضها البعض،في صورة اِتساق كلّي لتشكّل النّصّ، إلى التّداوليّة إلى السّيميائيات، «وإذا كانت الدّراسات اللّغويّة عاملاً أساسياً في فهم النّصّ من خلال لغته وإدراك حقيقته عبر صياغاته،فإنّها في الوقت نفسه قدّمت له تياراً آخر زاد في تأكيد هذا الاتجاه.نعني به "علم العلاقات"أو"السّيميولوجيا"التي تستمد حقائقه من الدّراسات اللّغوية،ساعياً إلى وضع الطّاقات والعلاقات الكائنة في الظّاهرة اللّغوية في شكل عقلي...»[17]، كُتب النّصّ ليُقرأ من لدنّ القرّاء،وكلّ قارئ يستقبله بموسوعيّته وزاده العلمي،هذا ما فتح الأبواب على تعدّد القراءات،حيث يشارك القارئ النّموذجي المبدع في لحظة توحّد وجودي لمداراة ومدارسة العمل الأدبي.«وهكذا يتبيّن أنّ الوصف معناه هو أن يشكّل المؤلف الواقعي إطاراً فارغاً يأخذه دائماً معه...أمام مجموعة من الأشياء المنفصلة أو المتّصلة التي لم تكن بالإمكان للكلمات أن تحصل عليها، لولا هذه العمليّة الجنونيّة...وهذا يعني أنّ الواقعة لا تنقل الواقع بل تنقل نسخاً مرسومة عن الواقع...»[18]

ومن ثمّة يتجلى لنا أنّ النّصّ الأدبي هو كتلة لغويّة لامعة المعدن، جذبت حولها الدّارسين والباحثين بشتّى تخصصاتهم ومجمل علومهم،ومختلف مناهجهم.«.

فهنا كصور (سيميو تركيبيّة)، وصور تداولية، وصور (سيمو دلالية)، يفترض الصنف الأوّل حضور نموذج نحوي،ويفترض الثاني حضور نموذج تواصلي،ويفترض الثالث حضور نموذج الواقع.»[19]، تتسارع وتتصارع المناهج الحديثة على مقاربة النصوص الأدبية،وبخاصّة نصوص التراث فتخرجها من سجنها وتمررها في خطاب جديد تفاعلي وديناميي،هذا ما أدى إلى تعدد لآليات القراءة و تلوّن مشاربها،وبروز ميكانيزمات عصرية قادرة على تفكيك النصوص القديمة وإعادة بنائها.«تبدو اللغة من الناحية الخارجية كأداة تواصل بين الناس،فهي توجد حيثما كان هناك أناس يعيشون في مجتمع، ولا وجود للّغة مستعملة دون أن تكون وسيلة تواصل،واللغة متعدّدة في تجلياتها:فهي تتحقّق في أشكال جدّ متنوّعة،يطلق عليها في الفرنسية حسب الحالات لغات(Langue)،لهجات(Dialecte)،باتوا(Batois)»[20]، حرّي أن نقول أنّ الدراسة النصّية قد بلغت أوجها،في الآونة الأخيرة،حيث انتظم النصّ في عمليات الاتصال الإجرائي،الذي يعمد على تحريك بنيات الكلية الملتحمة المتسّقة في فلك فيزيائي علمي محض.تفكك أجزاؤه، وتفرز أشلاؤه،وهي«...التي تعنّت نفسها في الكشف عن كلّ ما هو ممكن الكمون في خبايا النص وزواياه»[21]،يشرئب القارئ إلى التشبع من معاني الإبداع والاستقاه من دلالته،إنّه إبداع الإبداع أو الابتداع،وبعبارة أخرى حديث اللغة على اللغة،وتأويل الإبداع، وانبرى النقد الجديد يلوح في الأفق مع ظهور العلوم العصرية الراقية في ضوء الثقافة الجديدة والنظريات الحديثة مثل اللسانيات والسيميائيات.«...وهو يتطلّب من الإجراءات متى تنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي (Comceptuelconnectivite) واسترجاعه،وتشمل وسائل الالتحام على العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص.معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

والموضوعات والمواقف،للسعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية،ويتدعّم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص"22تسعى القراءة الناقدة إلى إبراز الأسرار الجمالية و الحقائق المخبوءة التي يحملها النص الأدبي للقرّاء،لتنير لهم دروبه الوعرة،وتهديهم إلى سبيل المعاني،فتركن الكتابة إلى الخيال والتأويل،قائمة على المعرفة.

وتأسيساً على ذلك ارتأينا أن نتعمّق في محيط تراثنا الأدبي،ونستخرج اللآلئ الدفينة منه،لننفض عنها الصدأ، ونعيد لها الحياة و العنفوان بآليات علمية حديثة،ونخرجها من رفوف الدواوين والكتب القديمة إلى الآلية الرقمية الحداثية،ونسافر بها عبر أسقاع العالم الذي أدرك ولا زال يعترف بفضل العرب في الإنتاج الأدبي المتميّز،وبخاصة لمّا يجالد و يكابد ويقاوم الكاتب أبسل الجهاد،إنّه الجهاد بالقلم في عصر،كُبتت القائح عن البوح –،«تجد اللسانيات الوصفية،كما الفينومينولوجيا تماماً أصولها في السؤال الديكارتي،ما درجه اليقين التي يمكن أن تتوفر عليها معارفنا؟...ولم تتردّد في الإعلان أنّ اليقين لا يمكن أن يتوفّرإلاّ مع التجربة، وذلك بالارتباط المحسوس والملاحظ السطحي وبالاكتفاء بالوصف.»[23]، كتب عبد القاهر الجرجاني كتب وخطب مكتملة في أسبك وأجود صورة،تحمل مضامين تعبيرية مؤثرة ومشاعر إنسانية نبيلة، تمتاز بحسن التبليغ وجودة التعبير،وجمال التأثير وصفاء التوصيل،بالغة إلى أعلى المنازل،ليبرز للذوات العربية أنّ التحلي بدلائل المحبة والتوافق بينهم هي سر من أسرار الحفاظ على اللغة العربية والسير قدما نحو ارتقائها وبقائها حيّة أبد الدهر.

5) الخطاب اللساني الجرجاني بحث في الأسس المعرفية:

ظهرالخطاب منذ زمن طويل ،حاملاً لهموم الحياة،ومعالجاً للواقع الموفوء والموبوء الذي يعيشه الإنسان في خضم التناقضات الحاصلة،والرهانات الحالية،نظرية العلاقات التي أقرّبها الجرجاني تعدّ مركز وجوهر الدراسات اللغوية والبلاغية والبيانية،التي دارت حول القرآن الكريم، ويعترف كثير من الباحثين بفضل هذه النظرية وذياع صيتها عند العرب،«أمّا المعاني العامة المشتركة والمطروقة،فلم يعد لها مكان بعد الجاحظ في مذاهب النقد ثم جاء الآمدي والقاضي الجرجاني،نظراً في جمال النظم والأسلوب نظرة جديدة،لقد أدركهما عصر البديع والتكلّف في الصناعة»[24] لصياغة أسرار وخصائص،فهي لا تقف عند الكلمة المفردة وقدرتها على الإيحاء،وإنّما تتعدى ذلك كلّه إلى وحي التراكيب وقدرتها على تصوير المعاني والأغراض.«كان الخطاب اللساني، حين ظهوره في بداية القرن العشرين آخر ما انضاف إلى الخطابات التي تتخذ اللغة موضوعاً لها،كخطاب المنطق وخطاب البلاغة بتسمياتها المختلفة،وكفلسفة اللغة...ومعلوم أنّ وجود أكثر من خطاب واحد حول اللغة،يرجع في أساسه إلى أنّ اللغة نفسها متعدّدة الوجوه؛ فهي أداة تواصل ووسيلة للتعبير وخاصية بشرية،وخاصية اجتماعية ونفسية وبيولوجية...فليست اللغة شيئاً واحداً كما قد يعتقد،ومن ثم لا بدّ من تأسيس أكثر من خطاب واحد حولها...»[25].سخّر "سوسير" كلّ جهوده للبرهنة على نسقية اللسان،واستعرض مظاهر هذه النسقية،وتبعه في ذلك جيل من اللسانيين من أمثال "جاكبسون"و"تروبسكوي" للبرهنة على سلامة التصوّر،تصوّر اللسان بنية«..انطلاقاً ممّا توفره الأنساق الفونولوجية والمورفولوجية بل وحتّى التعبيرات الشعرية،وتوفقت مدرسة كوبهاجن بزعامة "هيلمسليف" في تعميق أفكار "سوسور" البنيوية وإخراجها في صيغة نظرية متكاملة»[26]،يظهر جليّاً أنّ النظريات هذه النظريات

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

اللسانية هي امتداد عن التصوّر السوسيري للغة،دون أن ننسى الحضارة العربية الإسلامية التي لا تقل شئناً عن الحضارات الغربية،بل كان للعرب سبق في الدراسات اللغوية المعمّقة.«إنّ النظرية التي وضعها وجردها "سوسور" تشتمل على عدد من المبادئ والاختبارات العامّة،باستخراجها من مشاهدته وتحليلاته لظاهرة التخاطب اللّغوي وأداته التي هي اللسان،والنظر في تلك الأداة وعناصرها وتركيبها من جهة،ومن مقارنة مختلف النظريات اللغوية...وطرق البحث التابعة لها...ويمكن أن نحصر أصالتها في كيفية تحديد العلاقة القائمة بين الدال والمدلول في الأذهان والأعيان وبنائه بذلك نظرية الدليل اللّغوي (theorie du signelinguistique) تفسير ماهية الدلالة اللغوية إلى حدّ ما...»[27]، وتوصّل في الأخير "دي سوسير" إلى الحكم بأنّ اللسان بقدر ما هو مشترك،هو صورة (Forme)،وليس بمادة(Substance).«...فكان الجديد الطارئ على الدراسة اللغوية هو أنّ البحث في اللغة، تجاوز مرحلة ما بعد"سوسير"،فشهدت مسيرته انقلاباً مفاهيمياً هامّاً،فصار الاهتمام بالمواضيع التجريدية(الفلسفية والمنطقية) منذ أوسط القرن العشرين...وانفتحوا على الأنساق المعرفية العامة كالفلسفة والمنطق وعلم الاجتماع وعلم النفس،وحتّى الرياضيات...»[28]، قطعت الدراسات اللغوية أشواطاً كبيرة،إذ انفتحت على علوم مختلفة،خدمت اللغة خدمة جلية زادت من دقتها وعلميّتها.«...يقول الزناد في ذلك،وبعض يفرّق بين"نص" هو كائن فيزيائي منجز،و"خطاب" هو موطن التفاعل والوجه المتحرّك فيه،ويتمثّل في التعبير والتأويل»[29]، وفق هذه الرؤى يتضّح لنا أنّ النصوص الجرجانية الذي ندرسها،تتسم بالمظهر الشكلي التركيبي النحوي ،قد تحوّلت إلى خطاب تفاعلي دينامي، جاهز للممارسة الفعلية اللسانية،وقابل للإجراء النصي المترابط بمعايير،هي في الحقيقة معايير عربية تأسست منذ القرن

الرابع الهجري،وها هم الدارسون يعيدوا إحياءها لاستعمالها في مواضع اللغة المستعملة،في نصوصهم وخطبهم.ما هي الآليات النحوية المتوخاة من قبل عبد القاهر الجرجاني لتحقيق الترابط التركيبي في العبارة ومن ثمة الترابط النصّي الكامل؟

6) المفاهيم النحوية الجرجانية:

-القول في الحذف :

«هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصّمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتّم ما يكون بيانا إذا لم تبين، وهذه جملة قد تنكرها، حتّى تخبر وتدفعها حتّى تنظر...»[30].

قال تعالى «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ»(الزمر:09)، المعنى: هل يستوي من له علم، ومن لا علم له من غير أن يقصد النّصّ على معلوم.

والحذف كما يعرّفه طاهر حمودة "ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية، حيث يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكرّرة في الكلام أو حذف ما يمكن للسّامع فهمه اِعتماداً على القرائن المصاحبة حالية كانت أو عقلية أو لفظية[31].

وتتعدّد الأسباب الداعية إلى الحذف في سياق التراكيب فمنها: التخفيف، الإيجاز والاختصار، الاتساع، التفخيم والإعظام، صيانة المحذوف عن الذكر تشريفاً له، التحقير، الجهل بالمحذوف، رعاية الفاصلة في القرآن الكريم.

يقول سيبويه «والحذف في كلامهم كثير، إذا كان في الكلام ما يدل عليه»[32].

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

وقال تعالى «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا»(النحل:70).

وما نلمسه من هذه الآية الكريمة، هو أنّ الحذف في خالصه، ظاهرة أسلوبية بارزة في سياق الكلام، تناولها النحاة ووقفوا على قيمتها الجمالية، والتعبير القرآني أفضل مثال على ذلك، فهو يوظف الذكر والحذف، ليحقق تماسكاً جلياً مقصوداً ليتحقّق اتساق الكلمات والجمل مع موضوعها، فحذف حرف الجر(من بعد علم).

-القول في الفصل والوصل :

إعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يضع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها، بعد أخرى من أسرار البلاغة وممّا لا يأتي لتمام الصّواب فيه إلاّ الأعراب الخلّص والأقوام طبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنّهم جعلوه حدّاً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنّه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل.

ذاك لغموض ودقة مسلكه، وأنّه لا يكمل لإحراز[33] الفضيلة فيه، أحدٌ إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة، ومثال ما هو مرتبط بغير وصل قوله تعالى «الم* ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»(البقرة:1-2)، بيان وتوكيد على وتحقيق لقوله « ذَلِكَ الكِتَابُ »، وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن يقول: هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتاب، فنعيد مرة ثانية لتثبيته وليس تثبيت الخبر عن الخبر، ولا شيء يتميز به عنه، فيحتاج إلى ضامّ يضمه إليه وعاطف يعطفه عليه.

-باب القصر والاختصار:

قال الشيخ أبو علي في الشيرازيات: يقول ناس من النحويين في نحو قوله تعالى «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»(الأعراف:33)، أنّ المعنى: ما حرّم ربي إلاّ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وقوله تعالى «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ»(النحل:115)، النُصب في الميتة هو القراءة ويجوز، إنّما حُرّم عليكم: قال أبو إسحاق: والذي أختاره أن تكون هي التي تمنع "إن" من العمل، ويكون المعنى: ما حرّم عليكم إلاّ الميتة، لأنّ (إنّما) تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه[34]، وقال تعالى «إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ...»(يس:11).

كلّ ذلك تذكير من المولى عز وجل بأمر ثابت معلوم، فكلّ عاقل يدرك أشّد الإدراك أنّ الإنذار إنّما يكون إنذاراً ويكون له تأثير على المؤمن الخاشع الذي يخاف ويخشى الله ويصدّق بالبعث، وأنّ الساعة قائمة لا محالة.

ـباب التقديم والتأخير:

"هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان.

واعلم أنّ تقديم الشيء على وجهين، تقديم يقال إنّه على نيّة التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك : منطلقٌ زيدٌ، وضرب عمراً زيد، معلوم أنّ "منطلقٌ" و"عمراً" لم يخرجا بالتقديم عمّا كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوبا

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

من أجله، كما يكون إذا أخرت، وتقديمٌ لا على نيّة التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعله باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه[35].

والتقديم كما ذكر الجرجاني أنّه لا يرد بنيّة التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، و تجعله باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه،ومثال ذلك أن تجيء على اسمين يحتمل أن يكون واحد منهما مبتدأ أو يكون الآخر خبراً له فتقدم تارة هذا على ذلك وأخرى ذلك على هذا، نحو: زيدٌ المنطلق، أو المنطلق زيدٌ.

«... يتعلق الأمر بمفهوم أو موضوع "الأدب"، أيّ بعمل عبر-لساني لا توليه ثقافتنا قيمته إلاّ فيما بعد الإنتاج (الاستهلاك)، إنّه انتاجية مطموسة يتم استبدالها بصورة تعكسها شاشة تعطي مضاعفة "الأصل" الحقيقي أو بسماع خطاب يكون ثانويا بالنسبة "للواقع"، وقابلا للإعجاب والتفكير والحكم فقط كبدل مشيد في هذا المستوى من معقولية "الأدب"، كخطاب استبدالي يتموضع تلقي استهلاك النّص وما يتطلبه من احتمالية... في نفس مسار معقولية الاستهلاك، هذه تصبح المعرفة بعد حصول التّلقي الفج في مواجهة مع المحتمل كلّما مست تلك المعرفة "الأدب"»[36].

أضحى النّص عند الغربيين إنتاجية قابلة للاستهلاك والفهم والإدراك والتناول العلمي المختلف المقاييس بعد جهود سابقة، كانت من أبرزها جهود عبد القاهر الجرجاني، الداعي إلى التماسك النحوي من خلال تماسك واتساق عناصر الجملة، فتصبح كلاً موّحداً ومتسقاً لغوياً بارزاً يستدعي قراءات وتأملات فلسفية ولسانية، ودلالية وسيميائية، لمّا برز ملفوظه إلى العلن، وتبدل رداءه من نّص إلى خطاب منطوق فعلي يتفاعل والذات المبدعة أولاً، ويتفاعل والذات القارئة ثانياً، واستلهاماً لإبداع نّص ثانٍ جديدٍ يكتسي حُليّ الترابط

الشديد، والتعلّق المتين بين عناصره اللغوية، لتحقّق أدبيته وشعريته أو بالأحرى بنيته التكمالية، وما هذه إلاّ تسمية جديدة كانت واردة عند القدماء العرب ومجال اهتمام وعمل الأدباء منذ القدم.

قانون التكرارية، قانون التبادلية (Commutativité)، قانون التشاركية (Associativité)، قانون الامتصاص (Absorbation)، قانون التعديل (Modulation).ليست بقوانين غريبة على مؤسسي النحو العربي وقرّاء عصرهم، ممّن خدموا العربية خدمة جليلة كأمثال أبي عمر بن العلاء (154ه)، عيسى بن عمر الثقفى (149ه) وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (119ه).

«مثلما تتباين الطبيعة البنيوية للخطابيين الشفوي والكتابي، حتّى أنّه لا يمكن إدراك مفهوم أحدهما إلاّ بتصوّر هذا التعارض التاريخي والآني بينهما، فكذلك يتباين النّص من كونه ثابتا أو متحركا... »[37].

وعليه فإنّ الآليات التي استخدمها الجرجاني منذ حقب مضت كانت ولا زالت مستخدمة لاستنطاق النّصوص واستكناه أغوار الخطابات بغية اثبات مشروعيتها ونصيّتها، وبالتالي علمنة النّص الأدبي، فغدت متحركة بتحرك الفكر الغربي وتصادمه مع الفكر العربي التليد.

« يُعد علم النّص أو لسانيات النّص فرعاً جديداً في علوم اللسان وعلاقتها بالبحث الأدبي الذي استثمر كثيرا ممّا توصلت إليه اللسانيات، إن على مستوى منهجية البحث أو على مستوى النتائج، ويبدو ذلك جلياً في كثيرمن المفاهيم والمصطلحات اللسانية التي هيمنت على الدرس الأدبي، وصرنا نقرأها في كتابات كثير من الدارسين للأدب، أمثال "جاكبسون"، "بنفنست"، "باختين"، "بارك" و"كريستيفا" والقائمة طويلة في هذا المجال »[38].

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

لقد تجاوزت الدراسات الحديثة الجملة بعدما عجزت عن محاصرة كل مكونات الوصف اللغوي، جاء النّص بقدرة عظيمة على التماسك وعلى وصف الخواص الأسلوبية ووسائل السبك اللغوية والمضمونية والبحث في العلاقات الكامنة فيما وار الجملة، وتجاوز الدلالة إلى الرمز والملفوظ، وتحديد العلاقات النّصية في طريقة تسمح بتظافر عناصر الكلمة والجملة والنّص للوصول إلى المعنى المراد.

إنّ علم النّص تأسّس على أرضية صلدة هيّئت له وفرشت له معارف ومرتكزات كانت حاضرة ومتداولة بين النحاة العرب، انطلق منها مُحققا اتساقه وتماسكه وارتباطه وتعلقه ونصيّته، وبالتالي علميّته.

فهو يجمع بين تخصصات عديدة وعلوم شتّى يتظافر بعضها ببعض في تكوين الظاهرة النّصية، بل الواقعة الخطابية.

فعلى الرغم من العناية الكبيرة التي حظي بها عبد القاهر الجرجاني (471هـ) من الدارسين المحدثين، وعلى كثرة ما كتبوه عن كتابه "دلائل الإعجاز" ونظرية النظم فيه، فإنّ أكثرهم يشيرون إلى أنّ آراءه ما هي إلاّ تمهيداً مبكر وتوطئة متقدمة في الزمن، ولكن الصحيح الأصح هو أنّه مؤسس علم قواعد النّص (Text grammar)، أو ما يعرف بعلم النص أو علم اللغة النّصي (Text linguistics)، من خلال ما ابتدعه من آليات التماسك النحوي، كالفصل والوصل والتقديم والتأخير، والحذف والذكر والتكرار وغيرها...

ولعل أقدم من لفت الانتباه إلى آراء الجرجاني البلاغية وما فيها من اختلاف يميّزها عن غيرها من آراء البلاغيين الآخرين، هو الإمام الشيخ محمد عبده (1849-1905)، الذي نوّه بكتابيه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" في دروسه التي ألقاها على طلبته في

الجامع الأزهر، ونبّه طه حسين (1889-1974) على ما فيهما من محاولات جاءت بالتوفيق بين بعض قواعد النحو في الجملة وبعض قواعد الأسلوب عند أرسطو، ونوّه إبراهيم مصطفى في "إحياء النحو" إلى نظرة الإمام الجرجاني التي تقوم على أنّ النحو ليس كله إعراباً، وإنمّا هو شيء له علاقة ينظم الكلام نظما يمهد السبيل إلى الإفهام والإبانة والوضوح.

وكان محمد منظور أكثر المتحمسين لآراء الجرجاني، فقد عرض لها عرضاً مفصلاً في كتابه "النقد المنهجي عند العرب" منبها على ما فيها من آراء في اللغة، وإنما هي مجموعة من العلاقات وذلك شيء يوافق الجرجاني فيه آراء المحدثين(39).

والجدير بالذكر هو أنّ عبد القاهر الجرجاني تأثر مثلما تأثر آخرون ببلاغة أرسطو، ولاسيما بكتاب "الخطابة" الذي احتوى على بلاغةالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، وما في ذلك من مزيّة، كلاهما (الجرجاني وأرسطو) يقدّران جمالية النّص الأدبي.

وقد نوّه كلّ من شوقي ضيف في كاتبه "البلاغة تطوّر وتاريخ" وإحسان عباس في كتابه "تاريخ النقد الأدبي عند العرب"، و سيد قطب في كتابه "النقد الأدبي"، ومحمد عبد المطلب في كتابه "البلاغة والأسلوبية"، بالدور التنويري الذي قام به الجرجاني، فهو إذ يتحدث عن الإعجاز منطلقا من بلاغة العبارة إلى بلاغة السياق، واثقا للوصول إلى شمولية النّص وكليته، مرورا بمحطة تفكيك الكلام، وتجزئة الجملة مراعيا العلائق بين الكلام على أساس من التناسب والانسجام والمواءمة.

7) معنى المعنى اِكتشاف جرجاني:

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

لم يكن بوسع النقد الأدبي في هذه الفترة أن يستوعب ما انتهى إليه الجرجاني في موقفه من قضية المفاضلة بن اللفظ والمعنى واِستبدلها بفكرة النظم، فاعتبر هذا التحوّل الذي أحدثه الجرجاني، اختراقاً غريباً للنظام البلاغي المبني على المقاييس المضبوطة، حتى أضحت عُرفاً متداولاً عند دارسِ اللغة ونقاد الأدب، وكانت هذه الأحكام البلاغية وثيقة الصلة لفهم وتأويل النّصّ القرآني، هذه الضجة التي بدأت بواكيرها مع أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت210ه) في "مجاز القرآن"، وانتقلت إلى الجاحظ (ت225ه) في "البيان والتبيان"، ثمّ وصلت إلى ابن قتيبة (ت276ه) في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، ليتلقاها عبد القاهر الجرجاني (ت471ه)، ويحاول أن يؤسس لها وفق قواعد أكثر جدية وصرامة، بروح الأديب المُلهم والناقد المتمحّص.

وصَاحَبَ هذا التأثير القوي في معظم ما وصل إليه الجرجاني من أحكام جديدة وآراء جريئة، حركة أدبية على مستوى الإبداع، تجلّت في النهضة الشعرية التي قامت على يد أبي تمام، ومن بعده المتنبي، فقد كانت تبتعد عن النهضة بخطوات، بل كانت في الواقع ثورة على قواعد الإبداع وقوانين الكتابة الأدبية بشكل عام، قامت على الابتكار والأخيلة والاستعارات، وهذا ما دعا النقاد إلى محاربة الوصول إلى تحديد السمات الجدية للظاهرة اللغوية وللمنطق، فلم ينج أحد من تأثير "أرسطو" فيما قيم الجرجاني، حيث تأثر بفكرتي المحاكاة والوحدة في وصفه لفكرة النظم التي جعلها أصلاً في "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، بحيث يقول « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو»[40]، وهنا يربط الجرجاني فكرة النظم في الجملة ويربطه ربطاً قوياً بالنحو، أمّا حازم القرطاجني، فالنظم عنده معناه نظم الكلمات والمعاني، الأبيات ونظم الأبيات والمعاني في القضية، ومن هذا المنطلق وفي خضم

مفاهيم متباينة، ينفرد عبد القاهر الجرجاني بنظرية كاملة وفي غاية التفصيل الدقيق، ليؤكد على أولية المعنى وأسبقيته ويجعل الألفاظ تابعة له، ذلك لأنّ التعبير لا يتعلّق بمعاني الألفاظ منفردة دون تقرير لمعاني النحو، فالمعنى هو كيفية النظم، وقد أسس لهذا في قوله «الكلام على ضربين،ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده،وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج عن الحقيقة، فقلتُ: خرج زيد، وبالانطلاق من عمرو، قلتُ: عمرو منطلق وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللّفظ وحده لكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكتابة والإستعارة والتمثيل »[41].

ووصل في نهاية المطاف إلى إيجاد فكرة، التي عليها مدار هذا البحث بقوله « وإذا عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة، وهي أن نقول: المعنى ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللّفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثمّ يفضي بك ذلك إلى معنى آخر»[42]

نستخلص من هذا القول أنّ ألفاظ اللغة ليست إلاّ مجرد علامات وسمات دالة على المعاني، بحكم أنّ الألفاظ لا تراد لأنفسها وإنّما نراد لتجعل أدلة على المعاني؛ هذه النظرية بالرغم من مفهومها اللغوي البسيط، فهي تؤسس نموذجا راقيا للتعامل مع لغة البلاغة من وجه، وبلاغة اللغة من وجه آخر، وهذا ما يدعو إلى تحريك مستوى التذوق الأدبي لدى عبد القاهر الجرجاني.

فإن كانت العلامات اللغوية (الكلمات) يمكن أن تتساوى من حيث دلالتها مع غيرها من أنواع العلامات الأخرى، يمثل هذا قابلية العلامات للدخول في علاقات، مكونةً جملاً، ثمّ قابليتها بعد ذلك

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

للتّنامي في سلسلة من الجمل، وتكوّن في الأخير للنّصّ الكامل المتكامل.

"واللغة في حد ذاتها تنفرد على مستوى بنائها العميق بخاصية الثراء والتحوّل على مستوى المدلول لكي يصبح بدوره علامة من نوع آخر تشير إلى مدلول آخر، وهو ما يعرف بالتحوّل الدلالي في أنماط المجاز المختلفة(43).

وبدافع الحرص الشديد على اِستكناه أسرار الصيغ التركيبية "الدالة" في المستوى البياني والجمالي للغة، صاغ عبد القاهر الجرجاني فكرة "معنى المعنى" وهي لا شك فكرة ذات أهمية بالغة، إذا ُعدّت أحدث الدراسات اللغوية من خلال المنهج السيميائي الحديث.

الخاتمة:

كذلك صنع النحاة في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار والاظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه، إلاّ إذا نظرت فيما هو أهم لك وأهم لغيرك، بل فيما تعلم أنّه لا يضرك، فلا جرم أنّ ذهب بهم إلى معرفة البلاغة والفصاحة والبيان، حتّى مقدارها ومقاديرها.

ليت النّص العربي يقتدي بهذه الآليات والإجراءات، وإن كانت هيّنة، وكان السبيل إليها قريباً، والسعي وراءها جديراً، وإن كان التباين جلياً، والتفاضل في الكلام بيّناً ، بل أشرق النظر وارتقى الأمر إلى الإعجاز، وكان بذلك صوناً من الخطأ، وحصناً منيعاً من الوقوع في شبهة التأويل.

ونسأل الله التوفيق في إرضاءه قولاً وفعلاً، والعصمة من الزلل، الثبات عند الأجر، والبصيرة عندما تعمى الأبصار، نسأل الله الوسيلة التي بها نستنطق لسانه الناطق، ألا وهو القرآن الكريم، على

أيدي أهل البرهان والعلم والروية واليقين، والإنصاف، هم أزمة اليقين، وأعلام الدين وألسنة الحق.

هذا ما كان مأمولاً ومبتغى عند إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني في ضوء ما قرات له وما استنتجت من نتائج من خلال آراءه الثاقبة وأفكاره النيّرة.

الحذف والذكر، الفصل والوصل، التقديم والتأخير، القصر والاختصاص... كلها آليات استقرأتها وتفحصتها، فألفيتها تحقق تماسكا نحوياً يستدعي تماسكاً نصياً، أولاها علماء النّص عناية بالغة على مدار الزمن من بدايتها لعبد القاهر الجرجاني، إلى أن أضحى (التماسك النّصي) خاصية دلالية للخطاب الأدبي.

يصبو عبد القاهر الجرجاني في علم وحلم وأناة إلى أن يبرز للباحثين العرب من بعده،أنّ نصيّة الخطاب تحتفي بتفاعل الكلم تفاعلاً تاماً،التي تطلق شرارات ومعاني وآثار من النواة إلى المحيط،ومن المحيط إلى النواة،وهكذا حتّى يكتسي الخطاب الرداء الدلالي المراد تبليغه من لدن المخاطب،ويرتدي اللباس التداولي المراد إيصاله في مقامه و سياقه المعينين.

وما هي إلاّ دعوة إلى قراءة القراءة، وتحليل وتفكيك، وتأويل ما وراء الجملة، ومسائلة مادة ما وراء اللغة، وما وراء الدلالة، وربما تجاوزت أفكاره ما بعد التداولية...

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

هوامش الدراسة

1- دلائل الإعجاز في علم المعاني:عبد القاهر الجرجاني،تحقيق محمد رشيد رضا،بيروت،دار المعرفة الطبعة الثالثة،2001،ص38.
2- فصول اللغة والأدب:عبد الكريم بكري،وهران،ديوان المطبوعات الجامعية،الطبعة الأولى،1997،ص3.
3- إعجاز القرآن البياني،صلاح عبد الفتاح الخالدي،عمان،الأردن،دار عمار للنشروالتوزيع،الطبعة الأولى،2000،ص90.
4- دلائل الإعجاز في علم المعاني:عبد القاهر الجرجاني،ص253.
5- معالم السيميائيات العامة-أسسها ومفاهيمها-عبد القادرفهيم الشيباني،سيدي بلعباس،الطبعة الأولى،2008،ص12.
6- اللغة والمعنى والسياق:جون لاينز،ترجمة عباس صادق الوهاب،العراق،دارالشؤون الثقافية العامة،الطبعة الأولى،1989،ص16.
7- اللسانيات وأسسها المعرفية:عبد السلام المسدي،الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس،الدارالتونسية للنشر،الطبعة الأولى،1986،ص25.
8- مباحث تأسيسية في اللسانيات:عبد السلام المسدي،لبنان،دار الكتاب الجديد المتحدة،الطبعة الأولى،2010،ص11.

9- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي:أحمد المتوكل،الرباط،دار الأمان،الطبعة الأولى،2006،ص21.
10- أساسيات اللغة:رل تراسك،ترجمة رانيا إبراهيم يوسف،القاهرة،المجلس الأعلى للثقافة،الطبعة الأولى،2002،ص13.
11- البحث اللغوي عند العرب-مع دراسة لقضية التأثير والتأثر:أحمد مختار عمر،القاهرة،عالم الكتب،الطبعة الأولى،1988،ص80.
12- أسئلة الدلالة وتداوليات الخطاب-مقاربة عرفانية تداولية-:صابر الحباشة،الأردن،دار زهران للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،2011،ص14.
13- مقدمة في اللسانيات:عاطف فضل،عمان،دار المسيرة للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،2011،ص36.
14- المرجع السابق: ص37.
15- التلقي والتأويل-مقاربة نسقية-:محمد مفتاح،بيروت،المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى،1994،ص26.
16- المرجع السابق: ص80.
17- البلاغة والأسلوبية:محمد عبد المطلب،لبنان،مكتبة لبنان ناشرون،الطبعة الأولى،1994،ص252.
18- البنيوية وما بعدها-من ليفي شتراوس إلى دريدا:جون ستورك،ترجمة محمد عصفور،الكويت،عالم المعرفة،ص20.
19- البلاغة والأسلوبية-نحونموذج سيميائي لتحليل النص:هنري بليث،ترجمة محمد العمري،المغرب،أفريقيا الشرق،الطبعة الأولى،1999،ص60.
20- اللسانيات:جان بيرو،ترجمة الحواس مسعودي،مفتاح بن عروس،دار الآفاق،الطبعة الأولى،2001،ص2.
21- في نظرية النقد:عبد المالك مرتاض،ص25.
22- النص والخطاب والإجراء:روبرت دي بوجراند،ترجمة تمام حسان،القاهرة،عالم الكتب،الطبعة الأولى،1998،ص103.
23- الأسس الابستمولوجية للنظرية اللسانية-البنيوية والتوليدية:محمد محمد العمري،عمان،دار أسامة للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،2012،ص152.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

24- نظرية العلاقات أوالنظم بين عبد القاهر الجرجاني والنقد الغربي الحديث:محمد نايل،بيروت،دار المنار،الطبعة الأولى،1979،ص13.
25- الأسس الابستمولوجية للنظرية اللسانية –البنيوية و التوليدية-:محمد محمد العمري،ص19.
26- المرجع السابق: ص66.
27- بحوث ودراسات في علوم اللسان:عبد الرحمان الحاج صالح،الجزائر،دار موفم للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،2007،ص155.
28- التداوليات-علم استعمال اللغة،حافظ اسماعيل علوي،الأردن،عالم الكتب الحديث،الطبعة الأولى،2011،ص26.
29- مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه:محمد الأخضر الصبيحي،الجزائر،منشورات الاختلاف،لبنان،الدارالعربية للعلوم ناشرون،الطبعة الأولى،2008،ص24-25.
30- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، ط3، 2001، بيروت، لبنان، ص102.
31- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي: د. طاهر حمودة، ص4.
32- الكتاب: سيبويه، ج1، ص153.
33- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، ط3، 2001، بيروت، لبنان، ص152.
34- المرجع السابق: ص217.
35- المرجع السابق: ص85.
36- علم النّص: جوليا كريسطيفا، دار توبقال للنشر، ط1، 1991، ص43-44.
37- التحليل اللساني البنيوي للخطاب: عبد الجليل مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط1، 2001-2002، ص21.
38- مجلة الموقف الأدبي: مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق. العدد 401، أيلول 2004.
39- بتصرف، قواعد التماسك النحوي عند عبد القاهر الجرجاني، في ضوء علم النّص: إبراهيم خليل (الأنترنيت).

40- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، ط3، 2001، بيروت، لبنان، ص64.
41- المرجع السابق: ص202.
42- المرجع السابق.
43- المرجع السابق.

- ✓ مواقع الانترنيت: اسم الكاتب (السنة)، العنوان الكامل للملف، ذكر الموقع بالتفصيل:

http://adresse complète (consulté le jour/mois/année).